

شرح

كشف الشبهات

تصنيف الإمام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان القحطاني
ت ١٢٠٦ رعه الله رعه واسعه

شرح فضيلة الشيخ
محمد ابن عبد الله المالكي

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ: لَوْ كَانَتْ الْاسْتِغَاثَةُ بِجَبْرِئِيلَ شَرْكَاً لَمْ يَعْرِضْهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ؟
 وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى؛ وَهِيَ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَاعْتَرَضَ لَهُ جَبْرَائِيلُ فِي الْهَوَاءِ،
 فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا.

قَالُوا: فَلَوْ كَانَتْ الْاسْتِغَاثَةُ بِجَبْرِئِيلَ شَرْكَاً لَمْ يَعْرِضْهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ؟
 فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الشُّبْهَةِ الْأُولَى، فَإِنَّ جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ،
 فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿النَّجْم﴾، فَلَوْ أَدْنَى اللهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا
 حَوْلَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَيُلْقِيهَا فِي الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ عَنْهُمْ فِي
 مَكَانٍ بَعِيدٍ لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ لَفَعَلَ.

وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا؛ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُقْرِضَهُ، أَوْ يَهَبَهُ شَيْئًا يَقْضِي بِهِ
 حَاجَتَهُ، فَيَأْتِي ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُحْتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ، وَيَضْرِبُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللهُ بِرِزْقٍ مِنْهُ، لَا مِنَّةَ فِيهِ لِأَحَدٍ.
 فَأَيْنَ هَذَا مِنَ اسْتِغَاثَةِ الْعِبَادَةِ وَالشَّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ!؟



قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَاعْتَرَضَ لَهُ
 جَبْرَائِيلُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا.
 قَالُوا: فَلَوْ كَانَتْ الْاسْتِغَاثَةُ بِجَبْرِئِيلَ شَرْكَاً لَمْ يَعْرِضْهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ؟).

أولاً: القصة محل نزاع في ثبوتها من عدمه، قصة اعتراض جبريل لإبراهيم، وعلى فرض أنها
 صحيحة، فإنَّ هذا لا حرج فيه، لأنَّه استغاثةٌ بحَيٍّ حاضرٍ قادرٍ، فإنَّ جبريل حي، وكان حاضرًا -على
 فرض صحة القصة- كان حاضرًا وجاءه في الهواء، وهو قادرٌ فقد ثبت أن الله ﷻ أرسله ليحمل قرية
 سدوم قرية قوم لوط، فحملها بجناحه، وهو له ستمائة جناح، حملها بجناحٍ واحد، كل القرية بما فيها من

أناس وبهائم وزروع وبيوت حتّى بلغ بها عنان السماء، ثم كفأها من علو فجعل عاليها سافلها، أو ليس يقدر مثل هذا في إما يأخذ إبراهيم إلى مكانٍ آخر؟ أو يأخذ النار التي أوقدوها شهراً إلى مكانٍ آخر؟ لكن القوم لا يفقهون، أو أنهم يفقهون ولا يريدون موافقة الوحي، وإنما يريدون موافقة الهوى، وإلا فجبriel كما قال الله ﷻ عنه: أنه شديد القوى، وهذا بأمر الله ﷻ، والله ﷻ قد أخبر في كتابه العزيز كيف أنقذ عبده إبراهيم فقال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء]، فإذا هذه الشبهة داحضة، لأنه على فرض ثبوت قصة اعتراض جبriel لإبراهيم في الهواء، فإنّ القصة ليس فيها مُستند لهم، بل هي حجة عليهم، لأن إبراهيم يكون قد استغاث بحي حاضرٍ قادر، فهذا لا شيء فيه، وهو جائز.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَنُخْتِمَ الْكِتَابَ بِذِكْرِ مَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ تُفْهَمُ بِمَا تَقَدَّمَ، وَلَكِنْ نُفَرِّدُ لَهَا الْكَلَامَ؛ لِعِظَمِ شَأْنِهَا،
وَلِكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِيهَا، فَنَقُولُ:

لَا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ، فَإِنْ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ
مُسْلِمًا، فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ كَفَرَ عَوْنًا وَإِبْلِيسَ وَأَمْثَالِهِمَا.

وَهَذَا يَغْلُطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ: هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنْ لَا نَقْدِرُ
أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ، وَعَیْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْدَارِ.

وَلَمْ يَعْرِفِ الْمُسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أُمَّةِ الْكُفْرِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَتْرَكُوهُ إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الْأَعْدَارِ؛ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وَعَیْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا وَهُوَ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ؛ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ
الْخَالِصِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ طَوِيلَةٌ تَبَيَّنُ لَكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ.



قال الشارح وفقه الله:

ثم قال: (وَلَنُخْتِمَ الْكِتَابَ بِذِكْرِ مَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ تُفْهَمُ بِمَا تَقَدَّمَ) يعني من هذه الشبه التي عرضها،
قال: تُفْهَمُ مما تقدم، (وَلَكِنْ نُفَرِّدُ لَهَا الْكَلَامَ؛ لِعِظَمِ شَأْنِهَا، وَكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِيهَا) يعني غلط الناس فيها، ثم
بين ما هي المسألة بقوله: (لَا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ) هذا هو اعتقاد
أهل السنة والجماعة: الإيمان اعتقادًا بالجنان، وقولًا باللسان، وعملًا بالجوارح والأركان.

(فَإِنْ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا).

قال المُحَقِّقون قال الحافظ ابن حجر مُعلِّقاً على قول البخاري في كتاب "الإيمان" (وهو قولٌ وعمل)، قال: فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعمُّ من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقاد والعبادات ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان، ومن نفاه إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى - أي أن الإيمان المقبول في الآخرة -.

قال: فالسلف قالوا: هو اعتقادٌ بالقلب ونطقٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، وأرادوا بذلك أن العمل شرطٌ في كماله، ومن هنا نشأ لهم القول في الزيادة والنقص. والمرجئة قالوا: هو اعتقادٌ ونطقٌ فقط، يعني دون العمل، ولهذا سُموا مرجئة، أرجأوا العمل أي أخرّوا العمل عن مُسمى الإيمان. والكرامية قالوا: هو نطقٌ فقط - يعني باللسان دون الاعتقاد والعمل -، وهؤلاء أدخلوا المنافقين في مسمى الإيمان.

والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد.

والفارق بينهم وبين السلف: أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله.

يعني الواجب في الواجبات، والمستحب في المستحبات، وهذا كله - كما قلنا - بالنظر إلى ما عند الله تعالى، أما بالنظر إلى ما عندنا - أي ما يُحكم به في الدنيا للإنسان بالإسلام، ويعصم دمه وماله، فالإيمان هو الإقرار فقط - يعني باللسان - فمن أقر - يعني بلسانه - جُريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يُحكم عليه بكفرٍ إلا إن اقترن به فعلٌ يدل على كفره كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعلٌ فعل الكافر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته يعني حقيقة إيمانه.

وأثبت المعتزلة الوسطة فقالوا: الفاسق يعني الوسطة المنزلة بين منزلتين قالوا: الفاسق لا مؤمن

ولا كافر. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

هذا قولٌ يقولون: إن الفاسق في منزلة بين منزلتين، لا نقول: مؤمن ولا نقول: كافر، يقولون: هو بين

بين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهاهنا أصل آخر، وهو أن حقيقة الإيمان مركبةٌ من قولٍ وعملٍ، والقول

قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان:

🟢 القسم الأول: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه.

🟢 القسم الأول: وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكمالِه يعني لم يبق منه شيء، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع

بقية الأجزاء؛ لأنه هو الأساس وهو المرتكز تصديق القلب، فإن تصديق القلب شرطٌ في اعتقادها،

وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المُرجئة وأهل السنة،

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان متى؟ إذا زال عمل القلب يعني لم يُعد يعتقد لم يُعد عنده نية،

ولا عنده إخلاص لله، أهل السنة مجمعون على زوال الإيمان عند من زال عنده الإخلاص، وأنه لا ينفع

التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده محبته لله وانقياده لأوامرِه، كما لم ينفع إبليس

و فرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، كما كان أبو طالب، أبو طالب

كان يعتقد صدق الرسول وصحة دينه، لكنه لم يستسلم له، لم يعمل به، بل ويُقرون سرًّا وجهرًا

ويقولون: ليس بكاذب على النبي ﷺ، ولكن لا نتبعه ولا نُؤمن به، هكذا قالوا، وإذا كان الإيمان يزول

بزوال عمل القلب فغيره مُستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إن كان ملزومًا لعدم

محبّة القلب وانقياده الذي هو ملزومٌ لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة

القلب عدم طاعة الجوارح، هذا مثل إيمان المنافقين، كما قال الله ﷻ: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ

اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء]، والآيات في هذا كثيرة، فإن المنافقين لم تنقد قلوبهم للطاعة، فلذلك لم تنقد

جوارحهم إلا في حال المراة، أما في حال غير المراة، إذا لم يكن يراهم أحدٌ فإن جوارحهم لا تنقد

للطاعة، لأن قلوبهم لم تنقد للطاعة.

قال: لو أطاع القلب وانقاد الجوارح وانقادت، إذ لو أطاع القلب وانقادَ أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مُجرد التصديق كما تقدم بيانه، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، ولذلك جاء من شروط لا إله إلا الله الانقياد والقبول، وكذلك الإخلاص والصدق. قال: وهكذا الهدى ليس هو مُجرد معرفة الحق وتبينه، بل هو معرفته مستلزماً لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سُمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء».

يعني أن أناساً يأتيهم الهدى ولكنهم لا يهتدون، كما قال الله ﷻ: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، هم استحَبُّوا العمى على الهدى، وقال: ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، يعني كأنهم قدموا الهدى ثمنًا للضلالة، وهم قد علموا الهدى، لكنهم لم يقبلوه ولم يعملوا به.

قال: «وإن سُمي الأولى هدىً فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كم أن اعتقاد التصديق وإن سُمي تصديقاً فليس هو التصديق المستلزم للإيمان».

ليس كل التصديق مستلزم للإيمان، فكثيرٌ من المشركين والكفار صدَّقوا رسول الله ﷺ لكنهم لم يقبلوا أن يدخلوا في دينه.

قال: «فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته»، لكن استدركوا وقالوا: يلاحظ على كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ يُرَجِّحُ تَكْفِيرَ تَارِكِ الصَّلَاةِ تَكَاثُلًا، وكذا تارك باقي المباني الأربعة، وهذا خلاف قول الجمهور، لكن الذي يترجح عندنا هو تكفير تارك الصلاة تكاسلاً، لأن النبي ﷺ قال لأن تركها كفر، ولكن يبق كفرة كفر أكبر أم كفر أصغر كفر عملي أم كفر اعتقادي، فإن جحد وجوبها كان كُفْرًا اعتقاديًا وهو كفرٌ أكبر، وإن لم يجحد وجوبها كان كُفْرًا غير اعتقادي وكفر عملي وكفر أصغر، لكنه كفرٌ، كما سُمي اللهُ ﷻ الحُكْمُ بغير ما أنزل اللهُ كُفْرًا، لكنَّهُ كما قال ابن مسعود أو ابن عباس: «كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ» يعني هو كفرٌ لكنه كفرٌ أصغر غير مُخرد من الملة.

قال: (فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ) لم يعمل بالتوحيد بل أشرك، (كَفَرُوعُونَ وَإِبْلِيسَ وَأَمْثَالِهِمَا) طيب فرعون وإبليس أشركوا أهواءهم، فرعون أشرك نفسه، قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وإبليس أيضًا أشرك، لأنه ردَّ أمر الله ﷻ بالقياس قاس خلق آدم على خلقه، فرأى أن خلقه أفضل من خلق آدم فأبى أمر الله واستكبر وكان من الكافرين.

قال: (وَهَذَا يَغْلُطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ: هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا) هذا حق ونفهمه (وَنَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنْ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ) لماذا لا يقدرون؟ يعني لأنهم يرون مسامرة أهل بلدهم وأقوامهم لهذا قال: (وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ) (لا يجوز) بمعنى لا يكون مقبولاً عندهم إلا من وافقهم (وَعَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ) التي يُقدمونها يقولون: نحن لو عملنا بالتوحيد لا يقبلنا أهل بلدنا، سبحان الله! وهل قبل أهل مكة النبي ﷺ؟ بل رفضوه وآذوه، ووضعوا سلا الجزور على رقبتة وهو ساجد، وحبسوه ومن معه في شعب أبي طالب ثلاث سنين لا يؤاكلون ولا يُشاربون، ولا يُجالسون، ولا يُمدون بالشراب أو الطعام.

قال: (وَعَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ وَلَمْ يَدِرِ الْمِسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أُمَّةِ الْكُفْرِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الْأَعْذَارِ) يعني كالتي قالوها، يعرفون الحق كما قال الله ﷻ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثم قال: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]) أي يعرفون الحق، لا يُخطئونه أبداً. قال: (فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا وَهُوَ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ؛ فَهُوَ مُنَافِقٌ) يعمل بشيء خلاف ما يعتقد، هكذا كان المنافقون يعتقدون يُبطنون خلاف ما يُظهرون، (وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْحَالِصِ) يعني الكافر المحض، لماذا؟ لأنه يُظهر أنه مؤمن، وفي الحقيقة أنه ليس بمؤمن، ليس كذلك.

قال: (كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]) لماذا؟ لأنهم

كانوا في الدنيا على الظاهر أنهم مؤمنون، وفي الباطن أنهم كفرون، ثم قال: (وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ طَوِيلَةٌ تَبِينُ).

لعلنا نقف هنا إن شاء الله، ونُكمل بالغد إن شاء الله تعالى.

لأن الكلام سيكون فيه شرح أكثر.